ويلات السلم . . . !

للأستاذ سيد قطب

هذه الحياة الدنيا عجيبة ، فهي ما تزال تنشئ السم وتدس فيه الترياق ، وتخلق السقم وبين طياته عناصر الشفاء . وما تزال تحيل لأبنائها السذج أنها موشكة على التلف مشرفة على البوار ، فتثير فيهم قواهم الكامنة ، وتستحث منهم هممهم الراكدة ؛ ثم إذا هي تنفصل من الماء ، وتنهض من الكبوة ، أشد ما تكون عافية ، وأوفر ما تكون قوة ؛ كصحو الطبيعة غب الوابل المنهمر ، وصفو الكون بعد العاصفة الهوجاء !

وإن من عجائب هذه الحياة أن تكون للسلم ويلات ، ربما فاقت ويلات الحرب ، بل هي تفوقها بكل تأكيد . ألا وإن من عجائبها أن تجعل الحرب ترياقاً لسموم السلام !

وما يخالجني الشك في أن فرنسا كسبت بهذه الهزيمة أضعاف ما كسبت غداة الهدنة بالنصر . ولعلها بدا هذا القول عجيباً فإنه قمين بالتصديق . ومن شاء أن يختبر صدقه فلينظر فيما كانت عليه فرنسا قبل الحرب ، وما يلوح أنها ستكون عليه بعدها

لقد عبث النصر السابق والرخاء الغابر بفرنسا عبثاً شديداً ، فلقد غدت قبل الهزيمة شيعاً وأحزاباً لا حصر لها ، ولا تدرك أسماؤها فضلاً على مبادئها ، بل أهوائها . ولقد كان التشعب السياسي والحزبي أهون ما نكبت به فرنسا ، فلقد أصابها ما يصيب الأمم المنحلة من تدهور خلقي ، وإباحية ، وبيئة ، وفردية مقيتة ، واستهتار معيب ؛ ولقد نُسيت فرنسا ليُذكر الفرنسي ! وبات كل فرد أمة ، فكل فرد وشأنه ، وكل امرئ ولذائذه ، وكل نفس وشهواتها ، وعاد الأخذ شهياً والمنح عسيراً وغلبت الرفاهة وحب الراحة على الجميع

هذه فرنسا التي هزمت في أسبوعين ، وكانت ستهزم نفسها لو لم يهزمها الجرمان ، وكانت ستخذل قضيتها لو لم تخذل في الميدان . . .

وهذه — ولا شك — بعض ويلات السلام ، أو الاطمئنان إلى السلام ! أما فرنسا بعد الهزيمة ، فها هي ذي مغلوبة على أمرها

وديانات وأفكاراً وعقائد ونفوساً ، وأسس قومية روحانية على كتاب أصبح كل حرف منه شرعة قومية روحانية تضم شعوباً من كل لسان وكل لون ، وجعل لهذه القومية الإسلامية طابعاً لا يبليه الزمان بما نفث فيها من بغض للآلهة الزائفة ، وحب لله الواحد المنزه عن المادة . وهذه الوطنية المنتقمة من الاستهانة بالله هي خاصة أتباع محمد وفضيلتهم . ولقد كان فتح ثلث الأرض لعقيدته معجزته ، والأحرى أنها لم تكن معجزة رجل ، بل كانت معجزة العقل . وإن معنى وحدانية الله التي نادى بها والناس في سأم من العبادات الوثنية كان معنى له في ذاته من القوة ، حين تفجر على شفتيه ما أضرم معابد الأصنام المتيقة جميعاً ، وأشعل بأضوائه ثلث العالم

. . . إن حياة محمد وتأمله الديني ولعنانه الشديدة الفعالة لأباطيل بلاده ، وإقدامه على مواجهة حفيظة الوثنيين وحنقهم مواجهة الجسار ، وثباته على احتمالهم في مكة خمس عشرة سنة ، وقبوله أن يُعد بين مواطنيه فضيحة علنية (يعني قدوة سيئة تثير السخط) حتى كاد يكون نحيسة ، وهجرته أخيراً ، ووعظه بلا انقطاع ، وحروبه السجال ، وثقته بالنجاح ، وأمنه في الهزيمة أمناً فوق القدرة الإنسية ، وحلمه عند الفوز ، وطموحه الفكري الخالص البريء من طلب السلطان وصلواته بلا نهاية ، وحواره في البرحاء ، ووفاته وظفره بعد القبر ، كل أولئك يشهد بأكثر من الكذب بل يشهد بالإيمان ، وكان هذا الإيمان هو الذي جعل له القدرة على إقامة عقيدة ، وكانت هذه العقيدة مثناة : وحدانية الله وتنزيه الله عن المادة ، فواحدة تقول إن الله موجود والأخرى تقول ما ليس لله به ، واحدة هادمة بالسيف آلهة زائفة والأخرى مشهرة بالكلام سيرة

إن محمداً فيلسوف ، خطيب ، داع ، مشرع ، محارب ؛ وهو فاتح أقطار ، مقيم عقائد معقولة وعبادة بلا صور ؛ وهو مؤسس عشرين دولة دنيوية ودولة واحدة دينية ، ذلكم محمد ! فأي إنسي كان أعظم منه بكل المقاييس التي يقاس عليها العظم الإنساني ؟

محمد توفيق البكري

ولـكنها أشد حيوية وأكثر يقظة ؛ فلقد تنبهت فيها كل حاسة ؛ ولقد وحدها الخطر وهى ممزقة كل ممزق — والجسم الحى يتنبه ليدفع الخطر — ؛ وأخذ كل فريق يعمل على طريقته ، ولـكن لفرنسا ، لفرنسا وحدها لا لنفسه أو لحزبه ، ولا لمطامعه ولفائدته

فهذا « بيتان » الشيخ يجدد شباب فرنسا ! ويوحى إليها فى كل حركة وكل عمل وكل خطبة أن تنهض ، ويبشرها بالنهوض ، وهو فى الوقت ذاته يذكرها بالخطر الجاثم والهول المحدق ، ويستنهض فيها الماضى والمستقبل ، ويقودها إلى الإيثار بعد الأثرة ، وإلى التضامن بعد الفردية ، وإلى الإنسانية الدفة بعد الارتكاس فى الشهوات

وهذا « فيجان » يحتمى فى الشمال الإفريقى ، ليشد ساعد الشيخ ، ويثبت أقدامه أمام الغول الجرمانى ؛ وليبث فى نفوس الفرنسيين الثقة بأن لهم بقية من قوة ، ومسكة من مقاومة ، وأنهم خليقون بالثبات بعد التقهقر ، والنهوض بعد العثار ، والرجاء بعد القنوط ، والعزة بعد الاستسلام

أما « ديجول » ، فالحديث عنه نافلة ، ذلك أن موقفه خطبة صامتة أبلغ من كل خطبة ، وذلك أنه يمثل قلب فرنسا الحى ، قلبها الشجاع الأبى ، الذى لم يعترف بالهزيمة غداة الهزيمة . وإن « ديجول » وحده لشهيد بأن فى هذه الأمة حياة ، ولو طمست كل الأدلة والبراهين

وما من شك أن فرنسا ستنهض وقد تطهرت من أرجاسها ونقيت من أدرانها . ستنهض باسم الرجولة والتضحية والأخلاق ، وستكون خيراً لنفسها وللعالم من فرنسا المهزقة الغارقة فى الشهوات .

ولقد صنعت ألمانيا سنة ١٩١٨ ما تصنعه فرنسا اليوم ؛ فكانت الهزيمة حافزها الأول إلى وثبتها الجديدة . ولو لم يقم على هذه النهضة رجل عريض النفس ، شاذ السليقة ، لانتفع بها العالم فى التعمير بدل التخريب ، ولصرفت هذه الطاقة الضخمة من القوة الخارقة فى غير هذا السبيل

وما أريد أن أضرب المثل بانجلترا ، فقد يكون الخلق الإنجليزى فوق مستوى أفهامنا ، بل فوق مستوى أفهام العالم . هذا الخلق الذى يخلق من الشعب كله أبطالاً فى ساعة المحنة ، ويجعل من البشر ملائكة فى لحظة الخطر ، ويحيل الأفراد كتلة واحدة ما لها من فكاك

ومع هذا فقد كاد السلم ، وكاد الغنى ، يضعفان من أعصاب هذا الشعب ، فذهب إلى الحرب متثاقلاً ، ونام عن الاستعداد حتى دهمته الأهوال . ومن يدرى لو طال به السلم ، وأملى له فى الدعة ما كان يصيب هذا الخلق المتين من الوهن ، وهذه الأعصاب الفولاذية من الانحلال

* * *

للسلم ويلات ...

ومصر — كنانة الله فى أرضه — أشد أمم الأرض بلا استثناء إصابة بهذه الويلات !

فأين ما كان فى فرنسا من تشعب وتشعث مما فى مصر ؟ وأين ما كان هناك من فردية مقيتة وأثرة بغيضة مما فى كنانة الله ؟ وأين ما كان فى وطن نابليون من رفاهة مريضة وترف ذليل ، وفساد فى الخلق والضمير ، مما يجرى هنا فى وطن رمسيس ؟

لا يحاول أحد أن يكتم عنا ما نحسه فى أعماقنا ، ولا يجادل أحد فيما تلمسه أيدينا وتراه عيوننا ، ولا يفهم أحد أنه من الخير لنا أن نصعب عيوننا فلا نرى سوءاتنا

إن فى مصر من « ويلات السلم » ما لا يتصوره أى أجنبى عنها ؛ وفرنسا النحلة المريضة الغارقة فى الشهوات كانت قديسة طهوراً بالقياس إلينا ... كانت أمة ولسنا نحن أمة ، وهذا أخصر ما يصورنا من ألفاظ

فى مصر ما لا يحفظ التاريخ من فحش يعج بها وفحش يكتم

كما قلت فى قصيدة منذ سنوات

وليس هذا « الفحش » يقاصر على ما ينصرف الذهن إليه أول وهلة ، ولـكنه فحش يشمل كل شىء . يشمل الضمائر والأسرار ، ويشمل التصرف الشخصى اليومى للألوف والملايين

فى مصر فحش من الفقر وفحش من الغنى ، فحش من الحرمان وفحش من المتاع . وفيها فحش من النعومة التافهة يقابله فحش من الخشونة العارمة

وفى مصر مشاحنات ومنازعات ، ولـكنها ليست على شأن جليل ولا غرض عظيم . وفى مصر أثرة عمياء صغيرة المطامع قريبة الآفاق لا تعدو لذة كلذة الحشرات والهوام

ومنشأ هذا كله طول عهدنا بالسلم الرخيصة والدعة المريضة والأمان التافه . كل ذلك عبث بأعصابنا فأوهنها وبآمالنا فقرب مداها ، وبهمومنا فأصغر قيمتها ، والخطر الذى يثير الأعصاب ،

وينبه الحواس، ويكبر الهمم، ويغذى الطموح قد حرمتنا الأقدار إياه، فمنحتنا طبيعة سمحة لا تحوجنا للجهد ولا تثير فينا الجهاد، وسلبتنا نعمة الاستقلال أحقاباً متطاولة فلم نضطلع من عهد طويل بأعباء الاستقلال

علم الله لقد كانت أكبر أمنية لى أن أعيش حتى أرى مصر تخوض معركة. معركة واحدة، تطهرها كما تطهر النار الخبث، وتبعث فيها الرجولة الكامنة والتضامن الوطيد، وتنفضها من رخاوة السلم وانحلال الدعة ونومة الفراش!

وإن مصر لكاسبة كاسبة لو خاضت المعركة. كاسبة ولو تحطمت دورها وتمزقت أجسادها، لأنها ستبنى أخلاقاً وتوحد كياناً، وترتفع فوق مستوى الحرص الحيوانى على الحياة إلى مستوى الحرص الإنسانى على الكرامة. ولأن حيويتها ستنبض فى ساعة العسرة، وأعصابها ستشتد فى مواجهة الخطر، فتعوض فى المستقبل أضعاف ما تخسر من دور وما تفقد من أجساد!

لو خضنا المعركة – أية معركة – ما بقى ذلك الشباب الناعم الناعس، وما كان الإنذار بغارة جوية – لا الغارة – سبباً فى ارتعاد الفرائص من الهلع، واصطكاك الأسنان من الذعر، وتساوى الرجال بالنساء فى العويل والصياح!

لو خضنا المعركة – أية معركة – ما حدثك شاب «أرستقراطى» عن «النكبة» التى حلت به لأن «سهرة» فاتته، ولا عن «الكارثة» التى تسود حياته لأن منافساً له من بنى طبقته فاز بقلب راقصة – إن كان لها قلب!... ولا عن «ويلات الحرب» التى رفعت من أثمان العطور والخمور!

أى والله هذه أحاديث شباب «الوسط الراقى» فى مصر، وتلك مطامعه وآفاقه فى الحياة. وإن كثيرين من أبناء الطبقة الوسطى – عماد الأمم – ليقلدون هؤلاء مع الأسف، فإن لم يقلدوه فى هذا، فالكارثة عندهم أن لم يجدوا وظيفة بعد تخرجهم، والنازلة أن بعض زملائهم سبقوهم فى الدرجات، وويلات الحرب عليهم هى وقف العلاوات والترقيات!

لو خضنا المعركة – أية معركة – لبرئنا من الأثرة الحمقاء التى يحسب فيها التبرع بالجنيه من صاحب الألوف مفخرة تشيد بها الصحف، وتطوع فتاة فى مستشفى مبرة تنشر من أجلها الصور. ذلك أن التبرع بالأرواح والتطوع بالدماء يصبحان إذ ذاك عملاً يومياً لا يلفت الأنظار!

لو خضنا المعركة – أية معركة – لسكتت ألسن الدعاة الحزبيين عن الخوض فى الشخصيات ولترفعوا عن الشتائم والأسلاب، ولكان لهم من هموم مصر ما يشغلهم عن هموم الحكم، ومن مطالب الوطن ما يلهيهم عن مطالب الأنصار!

ولو خضنا المعركة لكان لنا أدب غير أدبنا الباكى الحزين ولكانت لنا أمجاد نتغنى بها، ومخاطر ندعو إلى اقتحامها، ومخاوف نثير الهمم إزاءها، ولكانت لنا عزة تستشعرها نفوسنا وتتغذى بها إحساسنا

إى والله، ولا سمعنا فى ذلة باكية «ما يهونش» أو «ميلت بختى فى الحب بختى» أو «يا حبيبى تعال الحقنى شوف اللى جرالى من نار حبك» أو «ليه تلاوعينى وانت نور عينى». ولأنفنا أن يكون نشيدنا القومى المختار: «لا والنبى ياعبده»!

* * *

اللهم إن تكن قد كتبت علينا ألا نخوض المعركة، فابعث اللهم علينا بركاناً ثائراً أو زلزالاً محطماً أو سيلاً جارفاً أو كارثة ما من كوارثك الرحيمة التى تنقذ بها عبادك من نومة الأمن ورخاوة الدعة وويلات السلام!

فإن تكن اللهم قد أردت حرمان هذا الجيل من رحمتك فلا تحرم الأجيال الآتية ما حرمتنا، إنك أرحم الراحمين!

«حلوان» سيد قطب

لا زكام بعد الآن!
أحدث الاكتشافات العلمية فى صحة الفم!
اليود فى عجينة للأسنان:
يودكاليكلور
أطلب النشرة العلمية الخاصة من:
جلانهورمان صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر
(س . ت ٥٢٢٧)